مساهمة الحركة الأدبية والفكرية في المحافظة على اللغة العربية إبان الاحتلال الفرنسي في الجزائر"

أ.د/ أحمد طالب

إن معظم كتاب المرحلة الإصلاحية ينتمون إلى جمعية العلماء المسلمين التي تأسست سنة 1931م لتقاوم سياسة الإدماج، التي سلكها المستعمر الفرنسي، لتعزيز امتيازات الغزاة وتغذية عنصريتهم، فقد بلغ به التفاؤل أن احتفل في 1930م بمرور قرن على احتلال الجزائر، ضاربا عرض الحائط بحقوق الإنسان الجزائري.

وقد تجسمت المسؤولية الملقاة على عاتق جمعية العلماء المسلمين، وسائر الحركات الفكرية، والاجتماعية، والإيديولوجية، في المحافظة، على مقومات الشخصية الجزائرية المتمثلة في اللغة العربية، فأصبحت فكرة الإصلاح، هي محور حركة الإبداع الأدبي والفكري.

اهتمت الجمعية أول عهدها بالشعر العربي، دون القصة والرواية، ولم يستطع الشعراء بمفردهم، تحمل عبء العلاقة الجدلية للتطورات الحاسمة للواقع، مما جعل جمعية العلماء تفتح أبواب النشر لكل من توسمت في أسلوبه الأدبي شيئا من أهدافها الإصلاحية والتوجيهية.

فظهرت ألوان السرد الحكائي، واستطاعت جمعية العلماء بقيمها الوطنية، وسلطاتها الروحية، توجيه مسارها نحو أغراض تخدم مقاصدها القومية.

يضاف إلى ذلك ضغط الاستعمار، وإلحاحه المزعج على محاربة الثقافة العربية، دون أن يسمح لأبناء الجزائر بالتعمق في ثقافته الفرنسية. ولم يقف الاستعمار عند هذا الحد، وإنما سعى إلى تقويض اللغة العربية، وإحلال محلها اللغة الفرنسية، مما دعا الأدباء والمفكرين الجزائريين إلى التصدي لهذه الحملة الفعالة بمحولات أدبية، شعرا ونثرا.

ولعل ثقافة القاص المستمدة من ينبوع تراثه العربي القديم، جعلت قصصه ترزح تحت أثقال الأساليب الزخرفية، كالمحسنات البديعية والسجع، والاستغراق في التشبيه والاستعارة، دون مراعاة لفنية السرد القصصي، والحيل البنائية للعناصر الفنية للقصة.

ورغم ما لهذه الثقافة التقليدية من صفات كلاسيكية، فإنها كانت بمثابة التربة الخصبة، إذ أنبتت أول جنس أدبي عربي جديد، وهو الشعر والسرد الحكائي القصير والطويل، مثل المقالة القصصية، والرواية والمسرحية، وقد كان استلهام القصص العربي القديم والبطولات العربية ـ سواء ما كتب منها بالفصحى أو الدارجة ـ أثره في بعث التراث القومي من جهة وتأثيره في نشأة الأدب الجزائري الحديث بما في ذلك المحافظة على اللغة العربية من جهة أخرى.

وقد ساهمت الجرائد والمجلات العربية الجزائرية بدورها في تلك المرحلة، في نشر الآراء والأفكار القومية والوطنية، بما في ذلك الاهتمام الخاص والقوي باللغة العربية الفصحى، وكان الكتاب يتنافسون في إبداعاتهم اللغوية والأسلوبية، مما ساعد على تطور مسار الأدب العربي الحديث في الجزائر في هذه الحقبة الاستعمارية الشائكة.

وقد يكون للصحف والمجلات الفضل، في تحريك الجمود الفكري، الذي هيمن على الحياة الثقافية فترة من الزمان، لكنها رغم تلميحها، ومراوغتها، وتسترها، لم تفلت من تعسف الرقابة الفرنسية. حتى أن فترات تعطلها كانت أطول من فترات صدورها.

ومن أهم المجلات التي نالت شهرة واسعة النطاق، مجلات جمعية العلماء وبخاصة "الشهاب" { 1925 - 1939 } و"البصائر" الأولى { 1926 - 1939} و"البصائر" الثانية { 1937 - 1956} ، لما أحاطتها الجمعية من عناية لغوية، وفصاحة في الأسلوب، فضلا عن نظرتها المتسمة بالصدق والجدية في الدعوة إلى الإصلاح، والمحافظة على اللغة العربية بالدرجة الأولى.

شجعت جمعية العلماء الأشكال الأدبية والفكرية التي تخدم غايتها وأهدافها، قاصدة بذلك إثارة شعور القارئ وتنبيهه لما هو عليه من أوضاع قاتمة، كما سعت أيضا إلى ترسيخ اللغة العربية السليمة المهددة بالاندثار. وهذا ما حفز الكتاب والمفكرين الجزائريين ، إلى الاجتهاد لنيل ثقتها وحسن ظنها بهم. فاقتفى معظمهم أثر الأساليب المنمقة قاصدا لغة المقامة والرسالة والخطابة مما صعب تطور اللغة لتساير لغة العصر، و إن كانت اللغة العربية، في هذه المرحلة بمثابة الأرضية التي لا تخفض جناحها إلا ببالغ العسر للأداء الفني الجديد ونعني بذلك القصة القصيرة والرواية وأشكال السرد الحكائي الأخرى.

أما عن المضمون الفكري، فقد كانت جمعية العلماء، ترى في اللغة العربية والدين الإسلامي، الدعامة الأساسية لمقومات الشخصية الجزائرية، من دونها لن تقوم للجزائر قائمة، فهضم الكتاب المتشبعون بالروح القومية مقاصد جمعية العلماء، ولم يبخل أحدهم بقلمه، إذ استطاع أن يساهم بكل ما يملك من قوة فكرية ووسائل فنية متاحة، يمكن أن تمنح للأمة وعيا جديدا، يدعو إلى المحافظة على كيانها شخصيتها المقدسة التي تجاهلها الاستعمار الفرنسي، منذ احتلاله للجزائر، وعمد إلى محاربتها.

لن يتردد الراصد لحركة العلاقة الجدلية بين الإيديولوجية والفن، في الأدب الجزائري العربي الحديث، في أن يضع يده عليها، في المحاولات القصصية الأولى إذ تعتبر محاولات محمد السعيد الزاهري، أول نسيج قصصي أخرج للحياة الأدبية في العقد الثالث. وقد تناولت المحاولات قضية " الإدماج" أي التطاحن الحاسم القائم بين جمعية العلماء وأعدائها الغزاة، ومن حذا حذوهم في فرنسة الجزائر.

كما تطرقت إلى معالجة الفساد، الذي حل بالعقيدة الإسلامية نفسها. إذ انتشرت الشعوذة والدجل و" الطرقية " التي بلغت شأوا خطيرا من التأثير في رعيل من البسطاء من الأمة، لتدعيمهم سياسة الإدماج الفرنسية، وشن حملات واسعة النطاق ضد الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء وآرائه القومية والوطنية.

وكان طبيعيا أن تجابه هذه الحركة بمقاومة عنيفة من كتاب الجمعية ومفكريها، لتبديد الأوهام وإزاحة القناع عن الخرافات التي سيطرت على أفكار أبناء الأمة ردحا من الزمان. بكشف أكاذيب شيوخ الطرقية، ومغالطاتهم وتفنيدها، وإبراز ما تبيت عليه نواياهم من فساد أخلاقي، فضلا عن الفساد السياسي.

وكانت غالبا ما تعتمد هذه المحاولات الأدبية على الحوار بين شخصيتين مختلفتين في الرأي لتظهر في نهاية المقال القصصي مبادئ الدعوة الإصلاحية وأهدافها، ويكون سلاح الكاتب الآيات القرآنية والحديث النبوي الشريف، ويتخلل القصة استطرادات ويكثر فيها الحشو، كما ترتكز في الغالب على الحوار، مع الهجوم على الموضوع من غير تمهيد، وتلت تلك الإرهاصات الأدبية محاولات أخرى تطورت بتطور الأحداث المشتقة من المصدر نفسه وهو اللغة العربية.

فمعظم المحاولات الأدبية والمقالات الفكرية، لا تعدو أن تكون إعلانا صرحا للمحافظة على القيم والتقاليد العربية الإسلامية الأصيلة، ونبذ كل ما وفد مع المستعمر،

من وسائل الدمار والخراب، لكل مقومات للشخصية والثقافة العربية والإسلامية. ومنها اللغة العربية ليحل محلها اللغة الفرنسية، وهذا ما لم يقبله الإنسان الجزائري.

إن الدعوة إلى المحافظة على القومية العربية الجزائرية، ليست مجرد التشبث بتراث السلف، وإنما هي المخرج الوحيد والسلاح الفتاك الذي يمتلكه الشعب الجزائري ليضع حدا للغزو والاستغلال البشع.

فمجزرة 8 مايو 1945 الرهيبة، التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، وضعت حدا للتفكير في الحلول السلمية، فانقلبت إثرها الطاقات الفكرية تعمل في خفاء، تمهد للثورة على الواقع الحالك.

تتضح بصمات جمعية العلماء جلية، في كل حركة أدبية وفكرية، في هذه المرحلة، وبخاصة هذه الجمعية المالكة لزمام المجالات الثقافية العربية ووسائل النشر، لم تفسح الطريق إلا للمعلمين المرشدين، مما اضطر الكتاب إلى تركيز عدساتهم، على الحياة الإصلاحية، ومعالجة ذلك في قوالب أدبية من شعر ونثر.

إن ظروف مرحلة جمعية العلماء كما يبدو واضحا، شائكة سياسيا واجتماعيا وثقافيا... ، بالإضافة إلى ارتباط الحركة الإصلاحية بالأدب، التي كان لها أثرها في عملية الإبداع، باللغة العربية، في الوقت الذي كان الاستعمار يشجع كتابة الأدب بلغته الفرنسية، وأن كان الإبداع الأدبي العربي الجزائري مثل القصة والرواية، كلتاهما بدأت في كل قطر عربي هذه البداية التعليمية الإصلاحية الواضحة، بكل ما فيها من ثغرات بالنسبة للشكل الفني، كما أننا نجد أن معظم الأدب العربي في هذه المرحلة، يرزح تحت وطأة المناخ الرومانسي الغارق في الخيال مسايرين في ذلك التيارات الفكرية والأدبية والإنسانية الوافدة من الغرب.

تُعتبر هذه المرحلة وهي مرحلة جمعية العلماء المسلمين، من أهم المراحل التاريخية. إذ حافظت الجمعية على مقومات الأمة وثقافتها العربية والإسلامية. إذ قامت ببناء المدارس في كل مدينة، لتمكين أبناء الأمة من الحرف العربي، الذي عمدت فرنسا إلى محوه من الجزائر، ليسهل إدماج المجتمع الجزائري، في المجتمع الفرنسي، وحرص الشعب الجزائري على الهوية الكامنة في اللغة العربية باعتبارها وعاء القيم والتقاليد والمفاهيم العربية والتكوين والميراث الحضاري، وباعتبارها اللغة التي يتحدث ويُفكر بها الناس في عالمنا العربي.

و لعل التفكير اليوم في مشاريع متكاملة لتستعيد اللغة العربية مكانتها على جميع المستويات التعليمية والإعلامية، والواجب أن يصاحب هذا، حملات توعية لتّبصير بعراقة اللغة العربية، وأصالتها، وتاريخها المجيد في الحضارة والعلوم والفلسفة والثقافة والآداب...، وبيان فضلها على لغات العالم.

إذ ينبغي استعادة اللغة العربية بمشروع عربي متكامل، حتى لا نكون فاقدي الثقة في أنفسنا، وفي قيمنا الحضارية، وفي لغتنا التي تُعد العلامة، لهويتنا الحضارية. إن دعم اللغة العربية هو الطريق الواضح لتنمية الهوية الوطنية، والحلم العربي المتمثل في دعم الهوية العربية، وسوف يصبح الحلم حقيقة حينما يدرك الكبار أهمية التربية اللغوية والوطنية لفرد العربي منذ الطفولة لتقوية الإحساس بقوتها وجزالتها وجمالها الأخاذ.

تُمثل اللغات الراقِيَة لدى أبنائِها المُنتَسِبين إليها دورًا يَتجاوَز بكثيرٍ مجرَّد مهمَّة التوصِيل، والتعبير عن الحاجات اليوميَّة، إلى مرحلة بِناء الأفراد والجماعات، وتشييد المعارِف والحضارات. فـ"اللغة" بِنيَة كلامية مُنتَقاة، يعتني بها أبناؤها جيل بعد جيل فهي من الأدوات التي تحمل الفكر الراقي والمشاعر الراقية من جيل إلى جيل، وقد ازدادت اللغة العربية، اتِّساعًا على مستوى المكان، وثراءً على مستوى الزمان، وهي في ماضيها المجيد تأتي في مُقدِّمة اللغات التي قامت بدورها الحضاري السامي، وارتفعت بأمَّة من مجتمع الصحراء القاحلة، لتكون هي ولغتها قائدة الحضارة والمعرفة على مستوى العالم قرونًا عديدة متتابعة.

ولعل اللغة العربية اليوم في أمس الحاجةٍ إلى استجماع القوة لمواجهة متطلَّبات الحاضر والمستقبل، في مختلف المجالات العلمية والمعرفية والحضارية، ولعل بفضْل وعي وهِمَّة أبنائها، يمكنها القيام بدورها الحقيقي، في المحافظة على الهُويَّة، وكيان الأمة العربية من الضياع. ومن الملاحظ أن اللغة العربية - والحمد لله - صمدت، في وجه الغزاة في جمع الدول العربية وهي تستطيع أن تبذل المَزِيد من الصمود والمقاومة، في الحاضر، والتأهُّب للمستقبل، إذا يقوم أبناؤها - كلٌّ في مجال قدراته واهتماماته وواجباته.

وكانت العربية تتجاوَز في ثقافتها الجنس العربي إلى ثقافة الإمبراطورية الإسلامية، التي لم تهتم فقط بعلوم اللغة والدين - إذ امتدَّتْ من خلال اللغة إلى الثقافة العلميَّة الإنسانية في الطب، والرياضيات، والفلك والصيدلة، وظلَّت ترجمات الكتب العربية لأعلام مثل: الفارابي، وابن سينا، وجابر بن حيَّان، والرازي، ابن خلدون، وغيرهم مصادر إشعاع فكري ومعرفي في الجامعات الأوروبية، حتى القرن الثامن عشر.

علينا أن نهتم بالتجارب العالمية المُعاصِرة، التي أدركت أهميَّة "اللغة" في تقوية شخصيَّة الأمَّة والمحافظة على كيانها من الاضمحلال، أمام الدول القوية الغازية، إذ عمدت إلى إحيائها وتوظيفها بقوَّة في الحياة العلمية والعملية.

على العموم لقد حافظت مختلف الحركات الأدبية والثقافية والفكرية والسياسية في الجزائر، بما في ذلك الزوايا والكتاتيب والمدارس، التي شيدتها جمعية العلماء المسلمين، على اللغة العربية والدين الإسلامي، كإحدى المقومات الأساسية للشعب الجزائري الذي قاوم الاستعمار الفرنسي، بكل ما يملك من قوة فكرية، كما حرص شديد الحرص، على الهوية الوطنية والقومية العربية، وهو اليوم يتطلع إلى آفاق مستقبلية

يشارك فيها العالم العربي من أجل الارتقاء باللغة العربية حتى تتمكن من مواكبة الصرح الحضاري العالمي.

أ.د/ أحمد طالب